مجلة المنتدى الأكاديمي (العلوم الإنسانية)
المجلد (8) العدد (2) 2024
ISSN (Print): 2710-446x , ISSN (Online): 2710-4478
تاريخ التقديم: 2024/05/26 ، تاريخ القبول: 2024/09/10، تاريخ النشر: 2024/09/15

أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح

محمد فيض

كلية السياحة والضيافة، مصراتة، ليبيا

المستخلص

قد كان الصراع على الخلافة ميداناً فسيحاً تسابق فيه الشعراء، يمدحون هذا، ويذمون ذاك، ويبرهنون على أحقية هذا ويبعدون الأحقية عن ذاك، مما جعل ذلك باباً طويلاً من الأبواب التي أخرجت لنا كماً وافراً من الشعر الذي يدور في فلك السياسة بشكل أو بآخر، إذا كان خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب وعلماً بأهمية الشعر وخاصة شعر المدح كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع، إن شعر المدح السياسي للخلفاء العباسيين في الحقبة الأولى، قد أثرى الحركة الأدبية، لما دار في كنفه من أدب رفيع، وشعر كثير، امتلأت به أمهات الكتب، وبطون الدواوين الشعرية، قد كانت مجالس الخلفاء مملوءة بشعر المدح كفن أول، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، ولقد كان شعر المدح أثره الذي لا ينكر في شيوع شعر المدح عامة، أصبح المدح من أنواع الشعر التي طلبها الخلفاء في مجالسهم، واهتموا بشعرائه، والتذوا بسماع شعرهم.

الكلمات المفتاحية: الخلفاء، العصر العباسي الأول، الشعر، المدح.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فقد كان تطور الشعر في عصر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية من الأمور البارزة، وشمل هذا التطور الشكل والمضمون، ولقد طالعت شعراء هذا العصر، وأخبارهم المنتشرة في أمهات كتب الأدب والتاريخ، وصلتهم بخلفاء عصرهم؛ لمعرفة ما إذا كان للخلفاء دور أو أثر في شعر المدح، فلم يكن هذا الغرض بمنأى عن بلاط الخليفة أو القائد أو الوزير، وقد بدا أثر للخلفاء في هذا الغرض بدرجة كبيرة، وكانت مجالس الخلفاء مملوءة بشعر المدح كفن أول، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، وكان للمدح أثره الذي لا ينكر في شيوع المدح عامة، وأصبح المدح من أنواع الشعر التي

طلبها الخلفاء في مجالسهم، واهتموا بشعرائه، والتذوا سماع شعرهم وطلبوا منه المزيد، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً بذلك أن ألقي ضوءاً ولو قليلاً على أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر المدح.

وقد حاول البحث أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر المدح، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في ثلاثة مباحث وبعدها خاتمة، يتناول المبحث الأول أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح، ويتناول المبحث الثاني أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح السياسي، ويتناول المبحث الثالث أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر مدح الوزراء والقادة، وتناولت الخاتمة النتائج التي توصل إليها البحث.

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول: أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح:

التطور سنة من سنن الحياة المسلم بها، فالنظريات العلمية الكبرى لم تكتشف طفرة واحدة، فما دام عقل الإنسان قادراً على التفكير، فلن ينتهي التطور، ولن يتوقف التجديد، وليس هذا في نظريات العلم التجريبي فقط؛ بل في مجال الفكر والفن أيضاً، فإن التطور في مجالها لن يتوقف، والتجديد لن يصل إلى نهاية، ما دام الإنسان يبدع ويتفنن في مجالات الفكر والفن المختلفة. والأدب من هذه الأشياء التي تتسق وهذه النظريات بلا شك، فتطوره مستمر عبر العصور، والتجديد فيه لا يتوقف، وفي الفترات التي كانت تحدث له انتكاسة عبر تاريخه الطويل، فإنه ما يفتأ يستفيق، ويكمل مسيرة تطوره، وقد حدثت هذه الانتكاسة للأدب العربي في بعض العصور، ثم إذا به ينطلق في مسيرة التطور والتجديد عبر الأيام والسنوات.

ومن الطبيعي أن يتأثر الأدب –إيجاباً أو سلباً– بالدول والحكومات التي يعيش في ظلها، فما كان جائزا في عصر ما؛ يصبح غير جائز ولا مقبول في عصر آخر "فالفضائل التي كان يمدح بها الجاهلي، دخلها شيء من التعديل من وجهة النظر الإسلامية، فوصف

الممـدوح بـالفتوة، وشـرب الـراح والمقـامرة. والإقبـال علـى الشـهوات، أصـبح مـن المسـاوئ والرذائـل التي ينبغي للمسلم أن يتجنبها ويتحاشاها لينجو بدينه"[1].

فلما استظل الناس بظل الإسلام – وأصبحت لهم حكومة – إن صح التعبير – أو أصبح لهم نظام، تحول ما كان مدحاً إلى ذم، وهكذا ...، يتأثر الأدب في موضوعاته بالحكومات التي خضع لها منتجوه، ويسرى هذا الأمر على تطور الأدب أيضاً، فقد يزدهر وينشط في ظل دولة ما، أو ينكمش وينحسر في ظل دولـة أخرى، بل إنني أرى أن حاكماً واحداً قد تتضح آثاره في الأدب إذا قورن بحاكم آخر في نفس الدولة، وقد يزدهر غرض من أغراض الشعر في ظل حاكم ما، على حين ينحسر في ظل حاكم آخر، وقد كان هذا واضحاً في الدولة العباسية في عصرها (132 – 232 هـ).

وقد رأينا أن العصر العباسي قد شهد نهضة ثقافية كبيرة، يتأثر من انفتاحه على ثقافات مختلفة، كالثقافة الهندية، والفارسية، واليونانية، بجانب نهضة الثقافة العربية والإسلامية نفسها، ثم انصهار ذلك كله في بوتقة واحدة، جعلت النهضة الثقافية بارزة في هذا العصر عن غيره من العصور قبله، وتركت آثارها في كثير من مناحي الحياة المختلفة بما في ذلك الأدب بشكل خاص.

أما حكام هذا العصر (132 – 323 هـ)، فقد تحدثنا عن محددات ثقافتهم تفصيلاً، وأوضحنا شمولية هذه الثقافة عند غالبيتهم، بسبب اغترافهم الكم الوافر للثقافات المختلفة، وتشجيعهم للعلماء والأدباء، ووقوفهم سنداً للمفكرين والشعراء، وتوجيه العلماء والمؤلفين لينضجوا العلوم، وقد ثبت أن للحكام دوراً كبيراً في حركة العلم والأدب، وما تزال آثارهم تنفع الناس كما نفعتهم في القديم، ويكفي أن يعترف كثير من العلماء والمفكرين بالخلفاء العلماء في العصر العباسي (132 – 232 هـ).

وقد اتفق كثير من المؤرخين على أن الشعر في العصر العباسي قد تطور تطوراً كبيراً، يقول محمد عبد العزيز الموافي عند حديثه عن النهضة الثقافية في العصر العباسي "وقد تأثر الشعر بهذه النهضة، فتطور تطوراً ملحوظاً، شمل الكثير من جوانبه"[2].

ويصفه هدارة بالتطور الهائل[3]، بل إن طه حسين يرى أن "الشعر في أيام بني العباس قد سلك طريقاً تكاد تخالف كل المخالفة طريقة أيام بني أمية، فنشأت معان جديدة وذهب الشعراء مذاهب مختلفة

[1] هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، 1408م – 1988م، ص395.

[2] الموافي، محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، مكتبة الشباب، 1991م، ص58.

[3] هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص394.

في وصف هذه المعاني والتعبير عنها، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة دروب من التصرف في فنون القول، والاختيار بين ألوان الكلام"[1].

فقد كان تطور الشعر في العصر العباسي (132 – 232 هـ) من الأمور البارزة، وشمل هذا التطور الشكل والمضمون. ولقد طالعت دواوين شعراء هذا العصر، وأخبارهم المنتشرة في أمهات كتب الأدب والتاريخ، وصلتهم بحكام عصرهم؛ لمعرفة ما إذا كان للحكام دور أو أثر في أغراض الشعر العباسي أو في توجيهها وجهة ما، وأرى أن للحكام أثر بارز ودور مهم.

في تجديد أغراض الشعر في العصر العباسي (132 – 232 هـ) فلم تكن معظم الأغراض بمنأى عن بلاط الخليفة أو القائد أو الوزير، وقد بدأ أثر للحكام في هذه الأغراض بدرجة كبيرة.

وإذا ذهبنا نستقصي أهم أغراض الشعر العباسي فإننا سنجد للحكام أثراً في توجيهها وجهة ما، من ذلك أثرهم في المدح، وفي الغزل، والزهد، والهجاء أغراض، قديمة عرفت قبل العباسيين، أو الشعر التعليمي، وشعر الفكاهة وهي والتندر، والخمريات، وهي أغراض جديدة ولنذهب مع كل غرض من هذه الأغراض، نحاول نلمس أثر الحكام في توجيهه وجهة ما أو صبغه بصبغة ما.

ظل المديح على رأس أغراض الشعر التي أبدع فيها الشعراء في العصر العباسي (132 – 232 هـ)، وقد تحدثنا آنفاً أنه على رأس أغراض الشعر الرسمي، الذي استأثر بالفن كما وكيفاً، وليس هذا بغريب على هذا الغرض بصفة خاصة ، فهو أكثر الأغراض جلباً للأموال، وأكثرها قرباً من أصحاب السلطان، وما دام هناك قادر على المنح ومحتاج إلى العطاء فلابد أن يزدهر المدح، كما يقول الموافي[2]، ولقد أبدع شعراء هذا العصر مطولات في مديح الخلفاء والوزراء، والقواد، وولاة العهود، وأبناء الحكام، والكتاب، وغيرهم من الشخصيات التي أحاطت بحكام بني العباس، بل مدحوا في بعض الأحيان بعض الأغنياء، أو الأصحاب إلى غير ذلك، وقد مدحوا أيضا المواضع، والمدن، والبلدان.

وقد كان لحكام العصر أثر في شعر المديح على وجه الخصوص، ويمكن تحديد دور الحكام فيه في النقاط الآتية:

كان الخلفاء يتابعون عن كثب حركة الأدب شعراً ونثراً، فيجلسون للشعراء في ندوات ملئت بها مصادر الأدب؛ فلم يكن بيت نادر، ومعنى جميل، أو سبك شعري محكم من مدح أو هجاء أو غزل أو

[1] حسين، طه، حديث الأربعاء، ط14، دار المعارف، القاهرة، ج2، ص20.

[2] الموافي، محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، ص63.

حكمة، إلا وكان عند الخلفاء علم به، كل خليفة حسب ميوله واهتماماته، من ذلك ما يروي عن "المهدي أن (مَرْوَانَ بن أبي حَفْصَةَ) دخل عليه بعد وفاة (مَعْن بن زائدة الشَّيْبَاني) في جماعة من الشعراء فيهم (سَلْم الخَاسر) وغيره، فأنشد مديحاً فيه، فقال له: ومن أنـت؟ قال: شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي، ألست القائل:

أَقَمْنَا بِاليْمَامَة بَعْدَ مَعْنٍ * مُقَاماً لا نُرِيـدُ بــه زَوَالَا**

وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ ذَهَبَ النَوَالُ فَلا نَوَالَا**

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلمَ جئتَ تطلب نوالنا: لا شيء لك عندنا"[(1)].

وإن الإنسان ليعجب بما حدث مع مروان بن أي حفصة، كيف عرف الخليفة هذا المدح، ولا أقصد كيفية المعرفة، لأن أبواب المعرفة كانت مفتحة أمام كل الناس، ولكني أقصد كيف حفظه، وكيف تمكن من معرفة اسم صاحبه، علماً بأنه لا يعرف شخصه بدليل أنه سأله عن نفسه، حتى حانت اللحظة المناسبة، فإذا هو يكرره بإجادة تامة، ولو لم يكن مهتماً بالأدب الجيد؛ لشغلته أمور كثيرة من أمور الملك والحكم والخلافة عن متابعة مدح ليس له، حتى غاظه كل هذا الغيظ، فإذا به يطرده من مجلسه بسبب شعره فهو خليفة واع بأدب عصره مهتم به حافظ له.

وهذا هارون الرشيد فيم يرويه أبو الفرج عن (يَزِيْدَ بنِ مَزِيْدَ الشَّيْبَانِي) "أرسل إليّ الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي، فأتيته لابساً سلاحي، مستعدا لأمر إن أراد مني، فلما رآني ضحك إلى ثم قال: يا يزيد، خبرني من الذي يقول فيك:

تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ فِي دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ * لا يَأْمنُ الدَّهْرِ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ**

فقلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين؛ فقال: سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله! وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله، وهو مسلم بن الوليد؛ فانصرفت فدعوت به، ووصلته ووليته"[(2)]. وللمرء أن يعجب أن يكون الخليفة السيد أعلم بالمدح ممن قيل فيه المدح، ليس هذا فقط بل أن يكون الخليفة أعلم بالشعر من قائد من قواده، علماً بأن هموم ومشاغل الخليفة أكثر بطبيعة الحال من هموم القائد، خاصة إذا كان هارون الرشيد، الذي كان يعلم جيداً تبعة مسئوليته عن الأمة،

(1) الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ج1، ص152. والشعر في مروان بن أبي حفصة، ديوان، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، ط3، دار المعارف، ص79.

(2) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، بطاعة كاملة محررة معها فهارس، بإشراف وتحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الشعب، القاهرة، 1389هـ، 1969م، ج21، ص7268.

ولكن حبه للأدب الرفيع، ورغبته في العلم، واهتمامه بآداب عصره، جعله لا يقول يعلم به فقط بل ويحفظه حفظاً جيداً ثم يوبخ قائده على جهله به، ولا يقل عنه بأدب عصره علماً ابنه المأمون، فقد روى عنه أنه "قال لأبي عمرو الشيباني: من أشعر الناس؟ فقال: قد اختلف في هذا يا أمير المؤمنين؛ فقيل أشعر الناس (امْرُؤ القيس) إذا ركب، و (زُهَيْر) إذا رغب، و (النَّابِغَة) إذا رهب، و(الأَعْشَى) إذا طرب، فقال المأمون: دعني من هذا ، من الذي يقول :

لا يَزالُ اللَّيْلُ حَيْثُ خَلَّتْ * فَدَهْرُ شُـرَّابِهَا نَهَــارُ**

فقال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِم * كَتَمَشي البُرْءِ فِي السَّقَمِ**

فقال: أبو نواس. فقال: من الذي يقول:

إذا مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاتِ منَ الفَتَى * دَعَاهَمهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحيلِ**

فقال: أبو نواس. فقال: هذا أشعر الأوَّلين والآخرين"[1].

والذي تجدر ملاحظته والإشارة إليه، ليس إعجاب الخليفة بشاعر معاصر له، فمن حقه أن يعجب بمن يراه –من وجهة نظره– جيد القول، بل لحكمة له بأنـه أشعر الناس، علماً بأن مسألة أشعر الناس هذه كانت محل خلاف بين العلماء، ولو لم يكن الخليفة راسخ القدم في تمييز الشعر لاقتنع بما قاله أبو عمرو الشيباني نقلاً عن علماء اللغة والأدب، خاصة وأن المعاصرة كثيراً ما تكون حاجزاً بين المعاصر من الشعراء وبين تفضيل شعره، إلا أن الخليفة العالم يفضل أبا نواس على غيره من الشعراء قديماً وحديثاً، ولم يكن هذا بالطبع رأياً عشوائياً منه إن صح التعبير ولكنه الذوق الفني العالي عند المأمون.

وكان كذلك هارون الرشيد فيما يحكيه عنه (شُرَاحِيلُ بنُ مَعْنِ بن زَائِدَةَ) "حج الرشيد وزميله (أبو يوسف القاضي)؛ وكنت كثيراً ما أسايره، فبينما أنا أسايره إذ عرض له أعرابي من بني أسد، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه، فقال لـه الرشيد، ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أخا بني أسد؟ إذا أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا وأشار إليَّ ما يقول:

بَنُو مَطرِ يَوْمُ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ * أُسُوْدُ لَـهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ**

هُمُ يَمْتَعُونَ الجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا * لَجَارِهُمُ بَيْنَ السَّمَاكَيْن منزل**

[1] ابن وادران، تاريخ العباسيين، تحقيق، المنجي الكعبي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1998م، ص420.

بَهَا لِيْلُ فِي الإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ * كَأَولهم في الجاهلية أَوَّلُ الجَاهِلِيَّةِ**

الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وإِنْ دُعُوا * أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وأَجْزَلُوا**

وَمَا يَسْتَطِيعُ الفَاعِلُونَ فِعَالَهُم * وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا [1]**

فهذا وعيّ تام، ومعرفة كاملة بأدب العصر، وقد كان هارون الرشيد مضرب المثل في الحكمة والعلم والاهتمام بالعلماء والإحاطة بالأدب، وجعل ذلك أحمد فريد الرفاعي يقول عنه: "على أن شهرة هذا الخليفة ومصدر صيته راجع إلى أن حكمه عجل بدخول عصر الآداب، فقد كان قصره المثابة التي يهرع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والفنون نافقة، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيته النبل والكرم، كل ذلك مما آتى أكله وثمره الناضج في العصور الآتية"[2]. ولم تكن هذه الثقافة وهذا المعرفة لتأتي من فراغ، أو دون جهد من الحكام، وإنما كان الخلفاء على ترفهم ورهافتهم ونعمتهم دائمي النظر في الأدب في وجود أصحابه ودون وجودهم، يجدون في ذلك لذة ومتعة، لا يتركون أنفسهم مطية للهو والتمتع والزخرفة في كل الأحيان، ولكنهم يجعلون جل وقتهم للمفيد من العلم، والجديد من الشعر، والمفيد من الأدب، على تفاوت بينهم إلى حد ما.

إذاً فإن خلفاء العباسيين كانوا يتابعون الحركة الأدبية في عصرهم متابعة جيدة يقيمون الشعر، ويعرفون غثه من سمينه، ويعطون الشعراء ما لا يتخيل من الأعطيات حال رضاهم عن جودة الشعر.

المبحث الثاني: أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح السياسي:

يصعب فصل الأدب –بمفهومه العام– عن السياسة، إذ لم يخلُ عصرٌ من العصور، ولم تخل فترة من الفترات من تزاوج بين الأدب والسياسة، فيشارك الساسة والحكام في الأدب أحياناً، ويشارك الأدباء في السياسة في كثير من الأحيان، وينتج عن هذا التزاوج وهذا التلازم كم وافر من الفن الأدبي، الذي يمكن جعله شبه تأريخ للأحداث السياسية في كثير من العصور، أما في هذا العصر فقد اهتم حكامه بالأدب عامة – كما قلنا آنفاً– واستخدموه سلاحاً داعماً لهم في حكمهم بصفة خاصة،

[1] ابن عبد ربه، أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر، العقد الفريد، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه، أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1368هـ، 1946م، ج5، ص291. وديوان مروان، ص88.

[2] الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، الهيئة المصرية، ج1، ص116.

وقد كان المدح من أهم الأغراض التي شجعها الحكام، وجعلوها تتلون بلون يطربون له، ويثيبون عليه، ويطلبون منه المزيد وقد اتضحت بصمة الخلفاء في شعر المديح، ممثلة في جعل الخليفة رمزاً دينياً يضفون عليه غير قليل من القداسة، يجب على الكل احترامه على أقل تقدير؛ بل تقديسه في بعض الأحيان، أما طاعته فهي من طاعة الله، مهما اقترف من الذنوب، أو جنى من الآثام، من وجهة نظر كثير من الشعراء .

والدواوين الشعرية وأمهات كتب الأدب مملوءة بالشواهد على ذلك، فها هو محمد بن عبد الملك الزيات يقول للشعراء وقد اجتمعوا على باب المعتصم: "من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النمري للرشيد:

خَلَيْفَةَ اللَّه إنَّ الجُوْدَ أَوْدِيَة * أحَلَّكَ اللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمَعُ**

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِيْنِ اللهِ مُعْتَصِماً * فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَنْتَفِعُ** [1]

فمن لم يكن بالحاكم أو الخليفة معتصماً، فصلاته باطلة من وجهة نظر الشاعر، وكلنا يعلم خطورة فساد الصلاة وما تؤدي إليه .

وها هو الحسين بن مطير ينشد المهدي قوله:

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَامَهْدِيُّ أفْضَلَهُمْ * مَا كَانَ في النَّاسِ إلا أَنْتَ مَعْبُودُ**

يَمِيْنُكَ مِنْ جُوْدِ مُصَوَّرة * لاَ بَلْ يَمينُكَ مِنْهَا صُوِّرَ الجُودُ** [2]

فالحسين بن مطير يصل بالمهدي إلى مكانة دينية لا ينبغي أن تنسب إلى بشر، مهما كانت مكانته الدينية في نفوس الناس، إلا أن الخلفاء كانوا يرغبون في إضفاء صفة القداسة هذه على منصب الخليفة، فبالغ الشعراء في ذلك مبالغات كثيرة، رفضها بعض الخلفاء أحياناً، وأثاب بعضهم عليها في كثير من الأحيان فأبو الفرج الأصفهاني يروي لنا أن الرشيد " كان يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده"[3]. وقد "برز الإلحاح على المعاني الإسلامية في مدح الخلفاء والوزراء على نحو لم يعهد من قبل، حيث كان

[1] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج21، ص7318.

[2] المصدر نفسه، ج16، ص5784.

[3] المصدر نفسه، ج13، ص4656.

المفروض –وفقاً لنظرية العباسيين في الحكم– أن الخليفة الذي يرعى شئون الحياة، هو في الوقت نفسه إمام المسلمين وحامي حمي الإسلام"[1].

وقد بالغ الشعراء مبالغات فاقت المعقول أحياناً، حتى وصل القول بأبي نواس أن قال في مدح الأمين:

تَنَازَعَ الأَحْمَدَانِ الشَّبة فاشْتَبَهَا * خَلْقًا وخُلَقًا كَمَا قُدَّ الشِّرَاكَانِ**

اثْنَانِ لا فَصَلَ بِالْمَعْقُول بَيْنَهُمَا * مَعْنًا هُمَا وَاحدةٌ وَالْعِدَّةُ اثْنَانِ**

وهو يقصد بالأحمدين هنا المحمدين: النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– ومحمداً الأمين [2].

فهو يقرن خيرية الأمين –بالرغم مما عرف عنه من مخالفات– بقدر النبي محمد –صلى الله عليه وسلم–، وخُلُقَه بُخلُقِه، على ما بينها من بون شاسع، ولكن الشاعر يعلم أن الأمين يتمتع بإضفاء هذه القداسة الدينية عليه، فلا يتردد في ذلك بل يجاوز الحد المعقول.

وها هو المأمون –بالرغم من علمه وعفوه وعقليته– فإنه يرغب أيضاً في جعله خليفة المسلمين وأكثرها أحقية بهذا المنصب، يقول محمد بن عباد، وهو أحد معاصريه: "قال لي المأمون وقد قدمت عليه من البصرة: كيف ظريف شعرائكم وأشعر مصركم؟ قلت: ما أعرفه؛ قال: ذاك الحُسَيْنُ بنُ الضَحَّاكَ أشعر شعرائكم أظرف ظرفائكم. أليس هو الذي يقول:

رَأى اللهُ عَبْدَ اللهِ خَيْرَ عِبَاده * فمَلَّكَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ**

قال: ثم قال لي المأمون: ما قال فيَّ أحدٌ من شعراء زماننا بيتاً أبلغ من بيته هذا"[3].

وبسبب هذه الطاعة وهذا الاستجابة من الشعراء لمطالب الحاكم، حتى لو كانت خارجة عن حدود المعقول، كان الحكام يدافعون عن الشعراء الذين يمدحونهم بهذا الشكل "دخل سليمان بن المنصور على محمد الأمين، فرفع إليه أنَّ أبا نواس هجاه، وأنَّه زنديق حلال الدم، وأنشده من أشعاره المنكرة أبياتاً فقال له: يا عم، أقتله بعد قوله:

أَهْدَى الثَّنَاءَ إِلَى الْأَمِيْنِ مُحَمَّدٍ * مَا بَعْدَهُ بِتِجَارَةٍ مُتَرَبِّصُ**

صَدَقَ الثَّنَاءُ عَلَى الأَمِيْنِ مُحَمّدٍ * وَمِنَ الثَّنَاءِ تَكَذُّبٌ وَتَخَرُّصُ**

[1] إسماعيل، عز الدين، في الشعر العباسي، الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، ص339.

[2] المصدر نفسه، ص342.

[3] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج7، ص2591.

قَدْ يَنْقُصُ الْقَمَرُ المُنيْرُ إِذَا اسْتَوَى * هَذَا وَنُوْرُ مُحَمَّد لَا يَنْقُصُ**

وإِذَا بَنُوْا المَنْصُور عُدَّ حَصَاؤُهُمْ * فَمُحَمَّدٌ يَاقُوتُهَا المُتَخَلَّص** [1]

فغضب سليمان، وقال: لو شكوت من عبد الله ما شكوت من هذا الكافر لوجب أن تعاقبه، فكيف منه: فقال: يا عم كيف أعمل بقوله:

قَدْ أَصْبَحَ المُلْكُ بِالمُنَى ظَفَرَا * كَأَنَّمَا كَانَ عَاشِقٌ قَدَرَا**

حَسْبُكَ وَجْهُ الأَميْنِ من قمَر * إذا طَوَى اللَّيْلُ دُونَكَ القَمَرا**

خَلِيفَة يَعْتَنِي بِأُمَّتِهِ * وَإِنْ أَتَتْهُ ذُنُوبُهَا غَفَرَا**

حتَّى لَو اسْطَاعَ مِنْ تَحَنُّنِهِ * دَافَعَ عَنْهَا القَضَاءُ وَالقَدَرَا** [2]

وهكذا، مازال الشاعر العباسي يخلع على ممدوحه من الخلفاء صفة الرمز، المكلف من الله برعاية الأمة، ووجوب طاعته والسير في ركابه لكونه خير الناس، وأفضلهم عند الله، لذا اختاره لخلافتهم، وما زال الشعراء يسلكون هذا السبيل، حتى أصبح سمة تميز المدح في العصر العباسي، وما كانت هذه السمة لتبرز بهذا الشكل إلا بسبب طرب الحكام لها، وتشجيعهم للشعراء ليتفننوا فيهما، حتى اصطبغ شعر المديح بها، وأصبحت من ظواهره الواضحة. ومن السمات التي ظهرت وأذكاها الخلفاء، حتى أصبحت من أهم ملامح المديح العباسي استخدام الحجج المنطقية المستقاة من علم الميراث في محاولة إثبات أحقية العباسيين في الخلافة، ويستلزم هذا الإثبات المنطقي نفي الإمامة عن غير العباسيين خاصة العلويين، بحجة أن العباسيين أقرب إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– من أبناء علي، لأن قرابة العباسيين قرابة عصب، أما قرابة العلويين فمن جهة فاطمة، لذا يرون أنهم أحق بالخلافة منهم، يقول مروان بن أبي حفصة، مادحاً المهدي:

يَا بْنَ الَّذِي ي وَرِثَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً * دُونَ الْأَقَارِبِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ**

الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي البَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ * قَطَعَ الخِصَامَ فَلَاتَ حِيْنَ خِصَامِ**

مَا للنساءِ مَعَ الرِّجَالِ فريضة * نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُوْرَةُ الأَنْعَامِ**

[1] أبو نواس، ديوان، تحقيق، علي فاعورة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ، 1987م، ص333.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج6، ص26. وديوان أبي نواس، ص254.

أَنِّي يَكُونَ وَلَيْسَ ذَاكَ بَكَائِنِ * لبني البَنَاتِ وِراثَةُ الْأَعْمَامِ** [1]

ثم هذا أبان بن عبد الحميد يعاتب البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء، وفقره هو بالرغم من خدمته لهم، موضعه منهم، فإذا بالفضل بن يحيى يوضح له المنهج الذي به ينال العطاء دون مواربة، "إن سلكت مذهب مروان؛ أوصلت شعرك، وبلغت إرادتك. قال: والله ما أستحل ذاك! فقال له الفضل: كلنا يفعل ما لا يحل، ولك بنا وبسائر الناس أسوة، فقال أبان:

نَشَدْتُ بَحقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِماً * أَعُمُ بِمَا قَدْ قُلْتُهُ العُجْمَ وَالْعَرَبْ**

أُعَمُّ نَبِيَّ الله أَقْرَبُ زُلْفَة * إِلَيْهِ أَمِ ابْنُ العَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبْ؟**

وَأَيُّهُما أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَالَهُ حَقَّ التَرَاثِ بِمَا وَجَبْ؟**

فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقَّ بِتِلْكُم * وَكَانَ عَلَى بَعْدَ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ**

فَأَبْنَاءُ عَبَّاس هُمُ يَرِثُوْنَهُ * كَمَا العَمُّ لابْنِ العَمِّ فِي الإرث قَدْ حَجَبْ**

وَفِي حَسَنٍ إِذ قُلْتُمُ فِيْه حُجَّة * فَقَدْ بَاعَهَا لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَوْ وَهَبْ**

فإِنْ كَانَ ذَا حقاً فَعَمْداً أَضَاعَهُ * وَإِنْ كَانَ ذَا دَعْوَى فَكُفُّوْا عَنْ الشَّغَبْ**

فلما أنشدها الرشيد أمر لأبان بعشرين ألف درهم، واتصل به بعد ذلك "[2].

وقد اشتهر مروان بن أبي حفصة خاصة بإتباع هذه المسلك في مدح خلفاء العباسيين، فهو الذي مدح المهدي بقوله:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا * بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَستُرُونَ هِلالَه**

أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَة مِنْ رَبِّكُمْ * جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا**

نَزَلَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ * بِتُرَائِهِمْ فَأَرِدْ تُمُوْا إِبْطَالَها** [3]

فزحف المهدي من صدر مصلاه إعجابا بالقصيدة، وإعطاء عن كل بيت من أبياتها ألف درهم، لذا نحا كثير من الشعراء نحوه في نفي الإمامة والخلافة عن أبناء على فطرب لهم الخلفاء، وأجزلوا لهم العطاء، فلقد روى أبو الفرج في الأغاني أن "النمري قد مدح بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة، فأوصلها العتابي

---

[1] ابن أبي حفصة، مروان، ديوان، ص66.

[2] الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله، الأوراق، دار المسيرة، عني بنشره ج. هيورت، دن، ط2، بيروت، 1401هـ، 1982م، ص14.

[3] ابن أبي حفصة، مروان، ديوان، ص199.

إليه واسترفده له، وسأله استصحابه فأذن له في القدوم، فحظي عنده، وعرف مذهب الرشيد في الشعر، وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد على بن أبي طالب –رضي الله عنه– والطعن عليه، وعلم مغزاه في ذلك، مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة، وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك، ونحا نحوه"[1].

لذا أصبحت هذه سمة بارزة من سمات المدحة العباسية، كان الباعث عليها، والمتسبب في شيوعها الخلفاء العباسيون، الذين تسببوا في صبغها باللون السياسي عامة، وهذا المدح خاصة.

المبحث الثالث: أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر مدح الوزراء والقادة:

ولم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم، وأعيانهم، وأهلوهم أصحاب فضل أيضاً، فالبرامكة كانوا أجود الناس على وجه العموم، وخاصة مع الشعراء والمبدعين "دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى يوماً وقد جلس للشعراء، فجلعوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحدٌ، ثم التفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق له: أيها الوزير: إني ما كنت استعددت لهذه الحال، ولكن قد حضرني بيتان أرجـو أن ينوبا عن قصيدة فقال: هاتهما، فرب قليل أبلغ من كثير، فقال:

مَدَحَ الفَضلُ نَفْسهُ بِالْفِعَال * فعَلا عَنْ مَد يُحنَا بِالمَقَال**

أَمَرُونِي بِمَدحِهِ قُلْتُ كَلَّا * كَبُرَ الفَضْلُ عَنْ مَدِيْحِ الرِّجَالِ**

فطرب الفضل وقال: أحسنت وأجدت، ولئن قل القول وندر، لقد اتسع المعنى وكثر، ثم أمر له بمثل ما أعطى لكل من أنشده يؤمئذ، وقال: لا خير فيما يجيء بعد بيتك وقام من المجلس "[2].

وقد كان البرامكة يحترمون الشعراء احتراماً شديداً، ويقدرونهم حق قدرهم، ولا ينظرون إليهم نظرة انتقاص بسبب طلبهم للأموال على قول الشعر، وكان الشعراء يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد: "هذا والله إسم استثقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين. لأن، فيهم الأشراف، والأحرار، وأبناء النعيم، ومن ولعله خير ممن يقصد، وأفضل أدباً، ولكن نسميهم الزوار، فقال بشار: يمدحه بذلك:

---

[1] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن حسين، الأغاني، ج13، ص4653.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الفكر العربي، ج6، ص193.

حَدا خَالِدُ فِي فِعْلِهِ حَدْوَ بَرْمَكَ * فَمَجْدُ لَهُ مُسْتَطرَفُ وَأَصِيْلُ**

وَكَانَ ذَوُو الآمَالِ يُدْعَوْنَ قَبْلَهُ * بِلَفْظِ عَلَى الإِعْدَامِ فِيهِ دَلِيلُ**

يُسَمَّوْنَ بالسُوَّال فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَإِنْ كَانَ فِيْهِمْ نَابَهُ وَجَلِيلُ**

فسَمَّاهُمُ الرُوَّارَ سَتْراً عَلَيْهِمُ * فَأَسْتَارُهُ فِي المُجْتَدِيْنَ سُدُولُ** [1]

وكان لكبار القادة شعراء أيضاً يغدقون عليهم الأموال الطائلة، من أمثال معن بن زائدة الشيباني، وعمرو بن العلاء، وأبي دلف العجلي وغيرهم، ولقد بلغ بعلي بن جبلة أنه استحيا من كثرة عطاء أبي دلف له قال "علي بن جبلة: كنت لا أدخل على أبي دلف إلا يلقاني ببر، فلما أفرط انقطعت عنه حياء منه، فبعث إلى أخاه يقول: لم هجرتنا فكتبت إليه:

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُركَ منْ كُفر نعْمَة * وَهَلْ يُرتَجَيَ نَيْلُ الزِّيَادَة بالكُفْرِ**

وَلَكِنَّنِي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِراً * فافرَطْتَ فِي بِرِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ**

من الآن لا آتِيكَ إلا مُسلّماً * أَزُورُكَ فِي الشَّهْرَيْنِ يَوْمًا وَفِي الشَّهْرِ**

فإِنْ زِدْتَني برًا تَزَايَدْتُ جَفْوَةً * وَلَمْ تَلْقِني طول الحَياةِ إلى الحَشْرِ** [2]

وكأنَّ بهؤلاء الممدوحين يسعون للمجد الدائم من خلال الشعر، وينفقون على أصحابه بهذا الكرم؛ لإحساسهم بقيمته الباقية.

من الظواهر الواضحة في شعر المديح في هذه الفترة أنه تفرغ إلى أنواع شتى، فما يمدح به الخليفة يختلف عما يمدح به وزراؤه، يختلف عما يمدح به القاضي، أو القائد، أو الكاتب إلى غير ذلك، وقد فصل ابن رشيق القول في ذلك، فالكاتب والوزير يمدحان بحسن الروية، وسرعة الخاطر بالصواب، وشدة الحزم، وقلة الغفلة، وبذل النصح للخليفة، والنيابة عنه في المعضلات، كما يمدحان بالبلاغة والخط والتفنن في العلم، وأفضل ما يمدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرع منهما[3]:

هَزَرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّداً * فَكَانَ رُدَ يُنِيًّا وَأَبْيَضَ مُنْصَلا**

---

[1] الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، ج3، ص1019.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج6، ص237. وعلي بن جبلة، ديوان، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، ط3، دار المعارف، ص63.

[3] ابن رشيق، أبو الحسين بن علي، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1974م، ج2، ص128 وما بعدها.

فَمَا إِنْ تُبَالِي أَنْ تُجَهِّزَ رَأيَهُ * إِلَى نَاكِث ألا تُجَهِّزَ جَحْفَلاَ**

تَرَى شَخْصَهُ وَسَط الخلافة هَضْبَة * وَخُطْبَتَهُ دُوْنَ الخِلَافَةِ فَيْصَلَا**

لِتَقْضِي بِهَ حَقَّ الرَّعِيَّة آخراً * وَتَقْضِي بهِ حَقَّ الخلافة أَوَّلاً [1]**

ويمدح على بن جبلة العكوك القائد الشهير أبا دلف العجلي فيقول:

رُبَّ صَافِي الْأَمْنِ مِنْ وَزَرِ * قَدْ أَبَ الخَوْف فِي وَزَرَهُ**

وابْنُ خَوْفٍ في حَشَا خَمْرِ * نُشْتَهُ بالأَمْنِ شتَهُ بالأَمْنِ مِنْ خَمْر**

وَزُحوف فِي صَوَاهِلِهِ * كَصِيَاحِ الحَشْر فِي أمرْهَ**

قُدْتَهُ والموْتُ مُكْتَمِنٌ * فِي مَزَاكِيْهِ وَمُشتَجَرهْ**

زُرْتَهُ والخَيْلُ عابسَة * تَحْمِلُ البُؤْسَىْ إلى عُقرهْ [2]**

ومن عجيب الأمر أنني وجدت خبراً في الأغاني يبدو المديح من خلاله موغلاً في التخصص، إذ لكل قائد سمات تميزه عن غيره من القواد، يعرفها الناس، ويعرفها الشعراء والحكام، فلقد روى أبو الفرج "أن سلماً الخاسر دخل على الرشيد وعنده العباس بن محمد، وجعفر بن يحيى، فأنشده قوله:

حَضَرَ الرَّحِيلُ وَشُدَّتِ الْأَحْدَاجُ

فلما انتهى إلى قوله:

إِنَّ الْمَنَايَا فِي السُّيُوفِ كَوَامِنْ * حَتَّى يُهيِّجُهَا فَتَىً هَيَّاجُ**

فقال الرشيد: كان ذلك عن بن زائدة، فقال: صدق أمير المؤمنين"، ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله:

وَمُدَجَجٍ يَغْشَى المَضِيْقَ بِسَيْفِهِ * حَتَّى يَكُونَ بِسيْفِهِ الإِفْرَاجُ**

فقال الرشيد: ذلك يزيد بن مزيد؛ فقال: صدق أمير المؤمنين"[3].

---

[1] أبو تمام، ديوان، تحقيق، محمد عبده عزام، ط4، دار المعارف، القاهرة، ج3، ص101.

[2] ابن جبلة، علي، ديوان، ص69.

[3] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج22، ص7592.

وهكذا كان على الشعراء أن يلائموا بين المدح والممدوح فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم وعدلهم في الرعية، وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف شجاعتهم، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة وغيرهم من الممدوحين.

المبالغة في الشعر من سماته، ومظهر مهم من مظاهره، لأن لها علاقة بالخيال الذي هو عصب الشعر وأهم ما يميزه، والمبالغة ضرورة من ضرورات المديح على وجه الخصوص، ولم تكن حديثة عهد على الشعر العباسي، لكن الجديد فيها من وجهة نظري محاولة إضفاء القداسة على الحاكم، بما يجعل الشعراء يخوضون في الوحل خوضاً، لمحاولة جعل الخليفة يستحق ما يشبه العبادة كما يقول الحسين بن مطير أو يجعله كالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– في خَلْقه وخلقه كما يقول أبو نواس، وقد كشفنا في أثناء حديثنا حول محاولة تقديس منصب الخليفة عن شيء من هذه المبالغات، ولكن الذي يجب الانتباه إليه، أن الحكام ساعدوا في مرور الشعر بهذه المبالغات التي خرقت حدود الدين، أما المبالغات عامة، فمن أهم خصائص الشعر على مر العصور، في العصر العباسي وقبله وبعده، وفي شعر المديح وفي غيره من الأغراض.

ولم تكن هذه المبالغات إلا لأن الشعراء لا يمدحون الخليفة من حيث شخصه وتصرفاته ولكنهم يمدحونه كرمز كما يقول شوقي ضيف[1].

وكان بعضهم لا يحب ابتعاد الشاعر في مدحه له عن غرض المديح وكأنه يبتغي من الشاعر أن يجعل القصيدة كلها مدحاً خالصاً، فلا يرضى أن يستولى على قصيدة المدح بالقليل من الأبيات، ثم يشبب في كثير منها، ويختلط عنده ما هو شخصي من الشعر بالشعر الرسمي، وقد لاحظ ذلك عُمرو بن العلاء فإن أبا العتاهية قال يمدحه:

أَمِنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وَصَرْفِهِ * لَمَّا عَلِقْتُ مِن الأمير حِبَالاً**

لَوْ يَسْتَطِيْعُ النَّاسُ مِنْ إِجْلَالِهِ * تَخِذُوْا لَهُ حُرَّ الخُدُودِ نِعَالاً**

إِنَّ المَطَايا تشتَكِيْكَ لأَنَّهَا * قطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِباً وَرَمَالا**

فإِذَا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ خَفَائِفاً * وَإِذا صَدَرْنَ بِنَا صَدَرْنَ ثِقَالا**[2]

[1] ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط14، دار المعارف، القاهرة، 1966م، ص161.

[2] أبو العتاهية، ديوان، تحقيق وشرح، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص373.

فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه حتى لا يقدر أن يقوم فغار الشعراء من ذلك فجمعهم ثم قال: يا معشر الشعراء عجباً لكم! ما أشد حسدكم بعضكم بعضاً، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشبب فيها بصديقته بخمسين بيتاً، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه، ورونق شعره، وقد أتانا أبو العتاهية تشبب بأبيات يسيرة، ثم قال، وأنشد الأبيات المذكورة فما لكم منه تغارون[1].

وكأنَّ بعمرو بن العلاء لا يبغى من الشعر إلا مدحاً خالياً من المقدمات الشخصية الطويلة أو من الإضافات غير المتصلة بالمدح.

نستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين: إن حكام العباسيين اعتنوا بالفن الشعري متمثلاً في الشعراء، وأراحوا كثيرين منهم من هموم الحياة المالية، وجعلوهم يعيشون حياة رغدة ثرية، لم يشعروا فيها بضيق الرزق، ولا بالسعي لجلبه بل "ما كانوا ليجدون الاعتراف الكامل بمواهبهم الفنية إلا في بلاط الخلافة"[2].

وإحقاقاً للحق، فإن طائفة من الشعراء لم تتكسب بالشعر، ولم تسع به إلى أعتاب القصور، طلباً لجائزة من خليفة، أو درهم من وزير، ولكن كان من الواضح أن الشعراء الذين داروا في فلك الحكام كانوا أكثر شهرة وأجود إنتاجاً ممن ابتعد عن مدحهم.

"حسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم، كأبي دلامة، وحماد عجرد، وبشار بن برد ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، ومنصور النمري، وغيرهم، وللبرامكة شعراء أمثال: أبان بن عبد الحميد، وابن مناذر، والرقاشي"[3].

إذا كان الحكام العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع، وطربوا للمديح.

---

[1] ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، 1948م، ج1، ص199.

[2] بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله للعربية، عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ج2، ص12.

[3] الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، ج1، ص154.

الخاتمة:

بعد هذا البحث في موضوع أثر خلفاء العصر العباسي الأول في شعر المدح، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية:

1) إذ كان الخلفاء العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة، فلم يكن هذا إلا تقديراً منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر وخاصة شعر المدح كفخر لهم يبقى أبد الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع.
2) لم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم، وأعيانهم، وأهلوهم وأصحاب فضل.
3) قد كان الصراع على الخلافة ميداناً فسيحاً تسابق فيه الشعراء، يمدحون هذا، ويذمون ذاك، ويبرهنون على أحقية هذا ويبعدون الأحقية عن ذاك، مما جعل ذلك باباً طويلاً من الأبواب التي أخرجت لنا كماً وافراً من الشعر الذي يدور في فلك السياسة بشكل أو بآخر.
4) إن شعر المدح السياسي للخلفاء العباسيين في الحقبة الأولى، قد أثرى الحركة الأدبية، لما دار في كنفه من أدب رفيع، وشعر كثير، امتلأت به أمهات الكتب، وبطون الدواوين الشعرية.
5) قد كانت مجالس الخلفاء مملوءة بشعر المدح كفن أول، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له، ويتأثرون به، ولقد كان شعر المدح أثره الذي لا ينكر في شيوع شعر المدح عامة.
6) أصبح المدح من أنواع الشعر التي طلبها الخلفاء في مجالسهم، واهتموا بشعرائه، والتذوا بسماع شعرهم.

المصادر والمراجع:

- ابن أبي حفصة، مروان، ديوان، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، ط3، دار المعارف، د.ت.
- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الفكر العربي، د.ت.
- ابن جبلة، علي، ديوان، جمع وتحقيق وتقديم، حسين عطوان، ط3، دار المعارف، د.ت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، مكتبة النهضة المصرية، 1948م.
- ابن رشيق، أبو الحسين بن علي، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1974م.
- ابن عبد ربه، أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر، العقد الفريد، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه، أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1368هـ - 1946م.
- ابن وادران، تاريخ العباسيين، تحقيق، المنجي الكعبي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ - 1998م.
- أبو العتاهية، ديوان، تحقيق وشرح، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ت.
- أبو تمام، ديوان، تحقيق، محمد عبده عزام، ط4، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- أبو نواس، ديوان، تحقيق، علي فاعورة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ - 1987م.
- إسماعيل، عز الدين، في الشعر العباسي، الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، د.ت.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، بطاعة كاملة محررة معها فهارس، بإشراف وتحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الشعب، القاهرة، 1389هـ - 1969م.
- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله للعربية، عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1961م.
- حسين، طه، حديث الأربعاء، ط14، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الرفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله، الأوراق، دار المسيرة، عني بنشره ج. هيورت، دن، ط2، بيروت، 1401هـ - 1982م.
- ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ط14، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
- الموافي، محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، مكتبة الشباب، 1991م.
- هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط1، دار العلوم العربية، بيروت، 1408م - 1988م.

THE INFLUENCE OF THE CALIPHS OF THE FIRST ABBASID ERA ON PRAISE POETRY

Mohammed Faid

Faculty of Tourism and Hospitality, Misurata, Libya

Abstract

The struggle over the caliphate was a vast field in which poets competed, praising this, disparaging that, proving the right of this and denying the right to that, which made this a long chapter of the chapters that produced for us a large amount of poetry that revolves around politics in one way or another, if the Caliphs of the first era of the Abbasid Caliphate had spent this much on poets. This was only out of appreciation for art and literature and knowledge of the importance of poetry, especially poetry of praise, as a pride for them that would last forever. Therefore, money became insignificant for them, and they enjoyed hearing. The poetry of political praise of the Abbasid Caliphs in the first era enriched the literary movement, due to the fine literature that it contained, and much poetry, which filled the most important books and the bellies of poetry collections. The councils of the Caliphs were filled with poetry of praise as a first art, the Caliphs listened to it, enjoyed it, and were influenced by it. Praise poetry had an undeniable impact on the spread of praise poetry in general. Praise became one of the types of poetry that the Caliphs requested in their gatherings, and they paid attention to its poets, and enjoyed hearing their poetry..

Keywords: Caliphs - The First Abbasid Era - Poetry - Praise.